الفقر وأثره الإيجابي على المؤمن

جمانة محمد مراد

مدرسة اللغة العربية في ثانويات حماة بسورية - مدقق لغوي بمجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

لعل القارئ لهذا العنوان يتعجّب أشدّ العجَب ويقول في نفسه: كيف يكون الفقر ذا أثر إيجابيٍّ – في الوقت الذي نعلم فيه أثر الفقر السلبَي في تأخير قضاء الحاجات والتعلم والاقتصاد وسائر الخدمات الاجتماعية التي تؤثر على الفرد والمجتمع المسلم؟

نحن على علم بخبر سيدنا عمر رضي الله عنه كيف تمنى أن يتشخّص الفقر أمامه ليقتله وينهي أمره حين قال: " لوكان الفقر رجلاً لقتلته" ويتساءل القارئ كيف تطرحين هكذا عنوان، ونحن جميعًا نعلم ما للفقر من أثر سلبي على جميع البشر؟

ها هو الشاعر الصعلوك عروة بن الورد مخاطبًا زوجه يقول:

ذريني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهمُ الفقيرُ

أقول: لعلّ الفقر مصيبة كبيرة على البشر هذا حقّ وكل شخص فقير يحاول دائمًا التخلص من فقره وحاجته هذا أيضًا صحيح، ولعل الكثيرين يستحون من كونهم فقراء ومحتاجين في الوقت الذي يظهر الغني أو المترف وهو مزهو واثق من نفسه يتحدث بين الناس بجرأة وجدارة ومعلوم أن الأغنياء سادة الدنيا ولكن الأتقياء سادة الآخرة[1].

وأُردِف القول: كان الأمر خاصًّا بالمسلمين دون غيرهم ويكأنّ الله اختصهم بهذه المزيّة دون سواهم من الأمم، وقد بينّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمر المؤمن كله خير له إن أصابه خير أو أصابه شر، وفي هذا الصدد يردُ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"[2]؛ فعن أبي يحيى صهيب بن سنان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له**".

[1]) قول علي بن أبي طالب: سادة الناس في الدنيا الأسخياء وسادة الناس في الدنيا الأتقياء.
[2]) رواه مسلم 27/3.

لقد نفى رسول الله أن تكون المصيبة خيراً إلا على من اطمأنّ قلبه إلى الإيمان بالله تعالى فرضي بقضائه واطمأن إلى فعل الله فيه وحمد الله على مصيبته وانتظر أجره وثوابه وإن كان ذلك في فقده لأحبابه وأهله، أو أمواله أو صحته.

وصحيح أن الأمم الأخرى قد يودي بها الفقر إلى مشكلاتٍ خطيرة وقد يوصل أفرادها إلى الجريمة وكذلك ضعيف الإيمان من المسلمين لكن وكما بين نبي الله من الحديث السابق أن الارتباط بالإيمان والصبر وانتظار الأجر في الآخرة والجنة يخفف من وطأة الفقر على فقراء الأمة الإسلامية الذين يدخلون الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام وذلك أن الله يحاسبهم على كل درهم من أين اكتسبوه وأين أنفقوه؟ فقد أخبرنا أبو برزة ابن نضلة بن عبيد الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟**"[1]

وأنا هنا لا أدعو إلى الافتقار والدروشة فالله يحبّ أن تظهر نعمته على عباده فلا يجحدونها ولا يخفونها ولا يظهرون للآخرين نقيضها قال تعالى: **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** (الضحى: ١١)، ولكنني أدعو إلى القناعة مع مطالبة المسلم بالسعي الحثيث إلى الغنى، والاستغناء هو الهدف وبيت القصيد.

فإنْ لم يستطع في رحلته أن يصل إلى الغنى فليستغنِ، وليقنعْ بما رزقه الله لأنّ حاله خير له ولو اطّلع على الغيب لرضي بحاله وفقره فكلا الفقير والغني من أمة محمد يتمتع بصفة الخيرية وكذلك كل من الضعيف والقوي سواء أكانت القوة مادية أم معنوية، روى أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير**"[2]، كما أن رسول الله بينّ لنا أن اليد العليا خير من اليد السفلى، أي اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ، ولكن لم ينفِ رسول الله صلى الله عليه وسلّم الخيرية عن كلا اليدين العليا والسفلى ولو بحثنا في معنى اسم التفضيل (خير) لوجدنا أنّ (المفضّل: اليد العليا) تشترك مع (المفضّل عليه: اليد السفلى) في صفة واحدة هي الخيرية، لكن زادت صفة الخيرية في اليد العليا كونها تعطي بينما السفلى تأخذ.

وفي قصّة لرجلين صالحين صاحبين خليلين: الأول غني والآخر فقير جاء الغني ليتصدق على الفقير فقال: وهو يحمل كيس الدراهم: خذْ ليس لك، أي لله، فأجابه الفقير على الفور: هاته ليس منك، أي من

---

[1]) رواه ابن حبّان والترمذي.
[2]) رواه مسلم.

فضل الله، وكلاهما أدرك أن المال الذي يتداول بينهما إنما هو من الله وإليه. ولا فضل للبشر فيه، ولكن للمتصدّقِ أجره وللصابر على الفقر أجره أيضًا.

– لماذا خاف رسول الله على أمّته من الغنى؟

– نحن نعلم وحسب ابن خلدون في مقدمته من كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)؛ نعلم أن الدول تمرّ في حالة البداوة، ثم تتبعها مرحلة القوة، ثم تكثر فيها الثروات والخيرات فتميل إلى الدعة والترف، ومن هنا تبدأ بالسقوط والنزول في دركات الهاوية وهذا المعنى قد أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما بين من رواية عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**وإني أعطيتُ مفاتيح الأرض وإني واللهِ لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**"[1].

– وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجرّاح إلى البحرين يأتي بجزيتها فقدم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فسمعتِ الأنصار بقدومه فوافته صلاة الصبح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انصرف تعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم، وقال: "**أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء؟** قالوا أجل يا رسول الله، قال: "**أبشروا وأمّلوا ما يسركم فوالله ماالفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على الذين من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم**"[2].

وفي كلا الحديثين تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من إقبال الدنيا على المسلمين وانشغالهم بأموالها وإقبالها عليهم عن دينهم، وفتنة الغنى ومخاطرها وما يقع جراها من التكبر والعجب وإزهاق المرء بعض دينه لأجل أعراضها الفانية أو مايقع بين المسلمين من التحاسد والتباغض بسبب المال والسلطان والمناصب.

فكم من رجلٍ كان قوي الدين قد نقض دينه من بعد قوة أنكاثًا لأنه فتن بالمال وأصبح شاغله وكم من حاسدٍ انشغل بمال غيره فاحترق حسدًا وأحرق من حسده!

---

[1]) صحيح البخاري رقم /1244/
[2]) صحيح البخاري /6425/

إيجابيات الفقر ودوره الاقتصادي:

الفقراء هم دائماً المؤهلون لحماية الثغور، والذود عن حياض الأمة والدفاع عن الحدود، فيقبلون على الجهاد إرضاءً لربّ العباد، وهم يعلمون أنّ ماعند الله خير وأبقى حيث تنتظرهم مكانة الشهداء، وعظم ثوابها ومجاورة الأنبياء، والحور العين وجنات النعيم.

– ثم إنّ الفقير لا يأنف من العمل في أعمال يأبى الأغنياء أن يعملوها فتكتمل النواقص وتُسدُّ الفُرَجُ ويسخّر الله الناس لخدمة بعضهم الآخر، ولو أنّ الناس كانوا أغنياء جميعهم لتوانوا واتكلوا على ثرواتهم وركنوا إلى الدعة والبطالة، وهذا يعني أن الفقراء يغنون المجتمع اقتصاديًا بمهنٍ تعود بمردودٍ اقتصادي عليهم أولاً وعلى أسرهم ثم على المجتمع ككل.

– ثم إنّ الغنى عبء على صاحبه في الدنيا والآخرة إن لم يحسن التصرف به وإن أساء استخدامه أو شغله عن دينه الذي هو عصمة أمره، والفقر يخفف عن صاحبه الحساب وأعبائه. ومعلوم لديكم قصة أبي ذرّ رضي الله عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب أن يؤمّره فقال له: "**إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة**"[1]. وما ذلك المنع من رسول الله إلا خوفًا على ابن عباس من أعباء الحكم والسلطان والغنى التي لايقوى عليها إلا من أيده الله واصطفاه واختاره.

وفيما سبق نرى أن التخفف من أعباء الدنيا وأثقالها إلا تخفيفًا للمرء عن السؤال والحساب وما كان يقوم به رسول الله من توزيع الأموال التي تأتيه إلا من هذا الباب حتى أنه كان يقول لعائشة رضي الله عنها: "**لو ذكرتني أي لو ذكرتني أن أبقي شيئًا لنا من المال الذي تصدق منه**".

إذًا لا يخفى ما للفقر من مزايا كما أنه في ظاهره مشكلة سلبية، فهو يوطّد أركان الإيمان في قلب المؤمن ويدعوه إلى التعلق بفراديس الآخرة، ويغرس الشجاعة في النفوس فليس عند المرء ما يخسره إن نظرنا إليه من وجهة نظر إيمانية بحتة.

.

[1]) رواه البخاري677/4.